أنيس النصولي : من رواد الوثبة العربية

بقلم وداد سكاكيني

في ضجة الخطوب العالمية وغمرة البشائر بالوثبة العربية الحديثة فقدت بيروت علما من اعلام الفكر والثقافة ، وقلما من اقلام الموهوبين الذين نذروا حياتهم للعروبة وبشروا بالثورة والحرية التي اعدت الجيل الصاعد في لبنان ليومه الكبير

يموت المرء دون اختياره ويترك لاهله وذويه لوعة وفجيعة ، لكن الادب حين يؤدي رسالته للافذاذ يترك الرزايا للنساء ويتلقاها التاريخ بالتمحيص والتأويل ثم يصهرها حتى تصبح ذكريات واحاديث او سيرا وامثالا ، فاذا طوى الموت انيس النصولي قبيل الثورة في موطنه وخلف لاهله حسرة ممضة فقد فتح التاريخ له صفحات مشرقة بالمجد ليثبت فيها ذكريات هذا الفقيد العظيم ويجعل منها مثلا رفيعا لبناة الجيل ورعاة القومية العربية بداب وتجرد ومعرفة .

لقد لاحت ملامح النبوغ والطموح في هذا الرائد المجاهد على الحداثة والصبي ، منذ تعهد هذه المخايل والتباشير والد مثقف فاضل لم تشغله التجارة الكبيرة عن براعم نبته وازاهير روضه ، فلما ضمت المدرسة فتاه الانيس في الجامعة في بلده بيروت كان في دراسته وسيرته غرة الشباب والطلاب ، واخذت حماسته للعروبة والقومية تبدو في مطارحاته وثقافته ، وفي مقالاته الاولى التي دلت على وجهته ومأتاه ، وكانت مطالع العهد العربي الجديد بلبنان بعد زوال الحكم التركي سانحة الخلاص والرجاء ، وفاتحة الكفاح لفتيان العرب الذين فتحوا الاعين على فظائع الاستبداد والعدوان وتظلم المفجوعين والمنكوبين الذين طال ارتقابهم لتلك المطالع التي تحولت وتبدلت فيما بعد ، وكان النصولي من هؤلاء الفتية المبكرين الذين هاجت اشواقهم للحرية والسيادة التي تدارسوا حوادثها واطوارها واحسوا الحاجة اليها وهم على مقاعد الدرس فانطلقت مشاعرهم متلهفة من وراء الجدران نحو الافاق الشريدة التي كانت تنتظر بوادر البطولات العربية الحديثة .

ففي ابان الدراسة الجامعية اخرج الطالب الاديب انيس النصولي كتابا عن « معاوية بن ابي سفيان » تحدث في فصوله القصار عن المعية هذا البطل العربي الداهية ، الذي ادخل على الحكم الاموي والحياة العربية المتفتحة حضارة وتجديدا وفتحا مبينا ، وكم كانت الآثار الاولى عميقة النقوش فيما ترادف من العصور وبعيدة النفوذ في معالم الافذاذ والتاريخ ، فقد اصفى النصولي المعتز بجوهر امته وقوميتها وميراثها الى هتاف معاوية من دارات امية ، وكان حكم الترك يلملم اذياله وينسحب معها خزيه وبهتانه لينحسر عن عالم متبرم تواق الى عروبته التي اضناها الظلم والهوان ، فراح الصدى يتردد في تلك النفس الكبيرة التي تعب في مرادها جسم النصولي منذ فرضت على روحه الجهاد والتفاني في معركة الفكر والبناء .

كانت تلك الاثارة العميقة انطلاقة النضال في الطالب الجامعي انيس النصولي ، بل لعلها كانت نقطة المسير في عمره الذي لم يدر ان سيكون قصيرا وان امتلأ بالخطوب والتبعات في جهاده الانساني والعلمي الذي بدأ منذ كان تلميذا في المدرسة والجامعة ، فكان له من البواكر المتعجلة كتاب « النهضة العربية في القرن التاسع عشر » وهو بحث قيم حاز من اجله الجائزة المالية من الجامعة في بيروت وقد نشرته مجلة الكلية فيها ، ومجلة الجامعة المصرية بين سنتي ١٩٢٤ — ١٩٢٦

ومن مؤلفاته المبشرة بتفكيره العلمي وعروبته الثائرة « الدولة الاموية في قرطبة » واني اذ اتصفح اليوم هذه الكتب ارى النضج فيها قبل الاوان ، وارى المنهج المسدد الذي يقود دراساتنا العربية المعاصرة ، فاعجب لهذا المؤرخ الثبت السباق الى هذا النسق القويم الذي كان عدة وطبيعة ظهرت في تأليفه واسلوبه وهو في مقتبل العمر وكانه من صنع امثاله اليوم على تواتر السنين والتجاريب وتمازج الثقافات والحاح المناهج الجامعية والموضوعية في التصنيف والتاريخ .

على ان المتتبع لما كتب انيس النصولي في مستهل حياته الفكرية يحس نداء عربيا بعيدا حل فيه وصفى اليه ليقوم بالدعوة لوثبة العروبة في كل ارض جزأها الاستعمار واستعداه اعوانه على الاحرار والمخلصين ، واصطنع لحكمه ومطامعه الطائفية البغيضة والاقطاعية الطاغية حتى تغلبت على اجزائه القطيعة المصطنعة ، وشرد الشرفاء او غيبهم الاضطهاد والتراب .

وكان انيس النصولي يأنس بنفسه تلبية الدعوة ، وتلمس اسبابها فوجد ان العلم وحده هو الوسيلة الى الحرية والحقيقة ، والنفوذ الى العقول والنفوس لتغيير ما فيها من اوهام وفساد وبناء مجتمع جديد على اساس الانبعاث والمحبة والتربية والتجاوب مع التطور الذي تتطلبه الحاجة

الزمنية والانسانية ، واننا لنستطيع ان ندرك مواجد هـذا الرائد على الحاضر القلق في مقدمة كتابه « عشت وشاهدت » فان من يقرأ الاهداء فيه والمقدمة ثم يمضي في سطوره التي عاش في حروفها ومعانيها يعجب لقلب حر وقلـم ملك الحجة والموهبة فعبر فيه بصدق وشعوره وقـوة تفكيره عن ملابسات النضال في مراحل الثورة العربية ، وكانت كلماته مرآة لحاضرنا فقد تاقت نفسه « منذ نكبة فلسطين لرؤية العرب في عزة ترفع شأنهم وسيادة تجمع شملهم وتاريخ يوحد همومهم وامالهم وتوحي اليهـم حوادثه القريبة بان يتنكبوا طريق الانانية والطائفيـة والاقليمية ليستطيعوا ان يتعارفوا ويتحدوا في ظل الوطن العربي الاكبر » (١)

وكانت دعوة النصولي « امنية حياته وان لم يشهـد تحقيقها فان ابناءه واخوانه سيشهدونها ويعيشون فيهـا وحينئذ يراها باعينهم ويحيا بوحدتهم ولو كان ترابا فـي لحد موحش »

لقد بدأ الدعوة في وطنه لبنان الذي ضاق به فانطلق بثقافته وطموحه وايمانه بحرية العلم والفكر الى البلد الذي عرف العرب فيه ازهى عصورهم ، مضى النصولي الذي حمل رسالة الوثبة الى العراق ، ليشارك في بناء الجيل المتحفز ويذكر القوم بقوة ارضهم وما فيها من روائع التاريخ ومآثر العروبة ، لكن المستعمر المتربص تبرم بالمعلم المخلص الذي احب العراق وفداه ، ووجد فيه المجال لرسالته ودراسته حتى كاد له اعوان الاستعمار بالدس والتمويـه فهبت الطائفية التي أيقظ نعرتها لمصلحته ، والحزبية التي اتخذها للتفريق والتمزيق هاتفة بالتأبي والتظاهر على هذا المعلم الجديد الذي جاء يدرس التاريخ على طريقة لـم يألفوها فعدوها طعنا في التراث وفتنة في الحرية الفكرية والاجتماعية

وكانت حكاية النصولي فيما اتهم كمـا رواها بقلمـه انه الف كتابه « الدولة الاموية بالشام » على منهـاج مستحدث عد بدعا فظيعا في ذلك الحين ، وكان هدف المؤلف في طريقته الجديدة ان تشيع الروح العلمية التـي تتقبل المناقشة واصطناع البصيرة والفكرة فيما قدمـه المؤرخون العرب وغير العرب من الحقائق والحوادث التي لحقها الالتباس والتحيز ولهذا جعل النصولي امامه فكرتين يهتدي بهديهما ويستضيء بنورهما : الاولى تدعو الى فصل التاريخ عن الدين والنظر الى ابطاله مهما تكن مزاياهم ورسالاتهم نظرة علمية تجردية ، والثانية تقول بالكشف عن علاقاتنا الحاضرة بماضينا البعيد لان التاريخ في راي النصولي انيس كما صرح بمقاله وتأليفه سلسلة حركـات متصلة متشابكة يأخذ بعضها برقاب بعض فالغابر قاعدة الحاضر ، والحاضر قوام المستقبل .

وبعد ان قرأ هذا المؤرخ الثبت المئات من المؤلفات الصفر وامات الروايات والمظان القديمة وجد ان المؤرخـين الاقدمين كالطبري واليعقوبي والديفوري والفخري قد اهتموا بالوجهة السياسية من التاريخ واغفلوا غيرها من الوجهات الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية فاحب ان يربط بين القديم والحديث في الحوادث والظروف لتحليل المشكلات الراهنة على ضوء الماضي تحليلا علميا غير عابيء بما جرى عليه اكثر المؤرخين المعاصرين ، فقد اخذت الامم والشعوب تكتب الصفحات البيض من تاريخها وتهمل ما يسيء الى مقومات حياتها ونهضتها ، ويبدو ان النصولي المؤرخ لـم يأبه للعرف والتقاليد في تأريخه للامويين والعباسيين على طريقته الجديدة ، وقد راح يغوص في الاعماق ويحلل اسباب الخلاف والحزازات فيما يروي من اخبار الزعامة والخلافة وحشود التحدي والنضال .

اراد النصولي ن يكتب لتاريخ من غير حكاية أو تواتر او متابعة ليقيمه على قواعد المنهجية العلمانية التي تجعل المؤرخ كالقاضي يحاور ويناقش ويستجلي الحـوادث ويستقصي الاسباب ليقرر الحكم بتجرد عن الهوى ، لكنـه تعجل الراي والزمن كما تعجل غيره من المبكرين الذيـن نشروا اراءهم العلمية في آفاق لم تكن بعد مستعدة لهـا ، وقد اتفق للنصولي ما اتفق للدكتور طه حسين في عـام واحد حين نشر سنة ١٩٢٦ كتابه « في الشعر الجاهلي » فهبت في وجهه عواصف النقد والتهمة بالكفر وجحـود

(١) ص ٧ من كتاب « عشت وشاهدت »

من منشورات دار الآداب

الشاعر الكبير نزار قباني

في دواوينه الثلاثة النافذة

أنت لي

سامبا

طفولة نهد

في طباعة انيقة مترفة ستكون زينة لكل مكتبة

التراث بكتب ومؤلفات لكبار العلماء والادباء في ذلك العهد

وكلا المجددين السابقين الدكتور طه حسين والاستاذ انيس النصولي قد تأثر بثقافة الغرب وتورط في اقتباس من المستشرقين الذين نظر كل منهم الى التاريخ العربي والى قصة ادبه وحضارته نظرة تختلف عما الف علماؤنا القدامى والمعاصرون ، وكان في بعض تلك النظرات والاراء من الباحثين المتحرزين تعسف وافتراء وجد يشبه جد الاطباء الذين يشقون بالمباضع ادواء الجسوم وقد يخطئون وقد يصيبون ، فاقصي كل من المجددين في الادب والتاريخ عن علمه بعد الضجة التي قامت حوله ، لكن ما اصابه لم يثنه عن رسالته ، فبقي الدكتور طه حسين في مجاله الواسع يؤلف ويحاضر ويسدد الخطى في حياة الادب الحديث حتى اليوم

اما النصولي فانه بعد ان عاد من بغداد الى بيروت عكف على الكتابة في الموضوعات القومية والتقدمية ، فنشر « موطني بيروت » و « الامام الاوزاعي »و « ورسائل الامير فخر الدين في توسكانا » و « عشت وشاهدت » وهو كتاب خطير لما يحتوي من تاريخ الحركة السياسية العربية منذ دبت فيها الحرية وقام الكفاح من جرائها

وكان لانيس النصولي في صحافة لبنان يد ومشاركة في التوجيه والتبصير فقد انشأ مع اخيه الكاتب الكبير الاستاذ محي الدين جريدة « بيروت » لتعزيز العروبة والقومية والذود عن الحقوق الانسانية ، ومن زاوية في « بيروت » كانت كلمة انيس فكرة ثقافية او اصلاحية او نقدا ورايا في الحياة الاجتماعية والحركة التحررية ، وقد ذاق مرارة السجن والاعتقال في سبيل صراحته ودعوته فما زادته الا ايمانا واملا بتحقيق الوثبة المنتظرة والغاية المثلى من اجلها .

وقد عرف يرحمه الله بعفة القلم واللسان وسخاء العون والتيسير ، والوفاء لمقاصد الخير والتعليم ، وعاش بجهاده العلمي والانساني وعمله الحر مستغنيا عن وظائف الدولة ومآرب الساسة ، فاذا غرب نجم حياته الى غير رجعة فان له نجوما تطلع من خلال فكره وذكراه في كتبه وسيرته ، وفي نضاله الصامت الذي برز وعيا ثقافيا وتحفزا قوميا في الوثبة والانطلاقة بلبنان ، حيث حفظ تراث العروبة وصان لغتها وتعاليمها منذ العصر الماضي وشارك في النهضة الفكرية على شواطىء الشرق وقد غنى شعراؤه في الوطن والمهجر اروع قصائد الحنين والحرية واهازيج الثورة التي كانت وقيدا على الضيم والتخاذل والتجزئة الاستعمارية ، ونفح هذا الشعر الملهم قومية العرب بنفحات من الشمم والتعاطف والبطولة ، واهابت بالامة كلها الى الوثبة الكبرى فقد مشت الشعوب وهي في قلقها ونضالها لصنع المصير

دمشق

وداد سكاكيني

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

*

الادارة

شارع سوريا ـ راس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة
في الخارج : جنيهان استرلينيان
او ٥ دولارات

في اميركا : ١٠ دولارات

في الارجنتين : ١٥٠ ريالا

الاشتراكات الرسمية : ٢٥ ل.ل. او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشانها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣